تعايش المسلمين مع غيرهم

عمر بن محمد بن سالم بن حفيظ
عميد دار المصطفى بتريم للدراسات الإسلامية

بحث مقدم لمؤتمر نحن والآخر الذي نظمته
وزارة الأوقاف الكويتية في الفترة من ٦ – ٨ صفر ١٤٢٧هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين الملكِ الحق المبين، وصلى الله وسلَّم على عبده سيد الخلق وحبيب الحق المرسل رحمةً للعالمين، المصطفى الأمين، وعلى آله الأطهار وأصحابه الأخيار، المُثل الأعلى بين البشر في نَظم عقدِ أسس حسنِ التعامل والتواصل بين متنوع أصنافهِم ومختلف طوائفِهم، وعلى تابعيهم بإحسان إلى يوم وضع الميزان.

أما بعد: فالتعايش بين بني الإنسان على مختلف أصنافهم واتجاهاتهم ومبادئهم قد بيَّنت شريعةُ إلهِهم وموجدِهم وفاطرِهم وربِّهم كلِّهم مفهومَه وأسسَه وضوابطَه ببيانٍ شاف وتفصيل واف، يجب أن يستوضحه ويفقهه المنتمون إلى شريعة الله، وأن يحسنوا العملَ به وتطبيقَه ليأخذوا مكانَهم اللائق بالمنتمين إلى شرع الإله الحق الواحد في قيادة خلقهِ وعباده إلى كلمةٍ سواء ومنهج وسط وميزان عدل وسبيل رشد وصراط مستقيم (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً) [البقرة: ١٤٣]. (كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) [آل عمران: ١١٠]. قال أبو هريرة: خير الناس للناس. رواه البخاري، فمعناه كنتم للناس خيرَ أمةٍ أخرِجت.

ولكن ضعف الفقه في نصوص الشريعة ومدلولاتها لعدمِ أخذِها من معدنها بسندها عن أهلها على الإخلاص لوجه الله والتعظيم له والاستسلام لأمره، وضعف التربية والتزكية اللتين يترتب عليهما استقامة التطبيق والتنفيذ على وجهِ الإحسان قد أوقعا الأمة لا في هذه المسألة – مسألة التعايش– وحدها بل في الكثير من مسائل التعامل مع الحق والخلق في تخبُّطٍ واضطرابٍ وانحرافاتٍ في التصورات والتصرفات، وحدوث مشاكل كثيرة وفتحِ ثغرات وحدوثِ شتات وتفرُّق وتمزُّق وتقهقرٍ عن المنزلة اللائقة بحمَلَة منهجٍ تسامى أن يكون أصلُ انبعاثه وانطلاقه من مجرد فكرِ البشر في قصورِه اللازم، ومداركِ الخلق في نقصها الحتمي.

والطالبون بصدق لتحصيل نسبةٍ من التمام والكمال الإنساني هم أعمق الناس شعورًا وأقواهم تحقُّقا بمعرفة قصورِهم ونقصِهم، وذلك سرُّ نجاحِهم في التمكُّن من تحصيل نصيبٍ من التمام والكمال الإنساني (إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى) [العلق: ٦، ٧] **فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل.** (وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً) [طه: ١١٤] (وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً) [الإسراء: ٨٥] (وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ) [يوسف: ٧٦] (وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ) [البقرة: ٢٨٢].

ونحن في هذا البحث نسهم في إبراز البيان الإلهي فيما يتعلق بقضية التعايش وتوضيح مفهومها وأصلها وأساسها وضوابطها إن شاء الله تعالى فنقول:

<u>التعارف هو الأصل في خلق الناس وتشعُّبهم وتكاثرهم:</u>

إن القرآن الكريم أنبأنا أن أصل الحكمة في تشعُّب الناس وتكاثرِهم مع تفرِّعهم من أصلٍ واحد أن يقوم التعارف بينهم، وذلك في قولِ الله تعالى مخاطباً لبني الإنسان (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا) [الحجرات: ١٣]. وفي تذكيرهم بوحدةِ أصلهم تهيئةٌ نفسيةٌ وتيسيرٌ لسبيل التقارب وعطف بعضهم على بعض، وانتزاعٌ لحدَّةِ التوتر والشعور بالعِداء أو بالتميُّز الذاتي؛ ومن المعلوم أن ركناً كبيراً من أسباب اضطراب التعايش بين الفئات من الناس هو التباعد غير الواعي، وعدم التعارف بينهم، فينشأ في ظل ذلك توهُّماتٌ كثيرةٌ وظنونٌ واسعاتٌ كاذبة لكثيرٍ من الأمور على غير حقيقتها، ويحمل كلُّ ذلك على بغضٍ

وحقدٍ وإضمار سوء وعزمٍ على كيدٍ وإرادة إيقاع الأذى وامتناع استفادةِ بعضِهم من بعض في دين أو دنيا، إلى غير ذلك من مساوي تُحَطِّم أسباب التعايش السلمي السليم بين الفئات.

وبُحسن التعارف يضمحلُّ كلُّ ذلك ويتيسر السبيل لإقامة العلاقات الموزونة، والتعاون على المصالح المشتركة، كلٌّ بضوابط مبدئه والتحكم في ضبطِ النفس وإنصاف الآخر والبعد عن الطغيان والعدوان، والتعارف مثمرٌ لذلك خصوصاً ممن كان حسنَ النية حاملاً للرحمة وإرادة الخير لكل البشر، وهو ما تربِّي عليه شريعةُ الله المؤمنين بالله ورسوله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم.

الأساس الضروري للتعايش:

أرشدنا القرآن الكريم إلى ضرورة التحلِّي والتمسُّك بالصبر فيما يتعلق بشؤون الصِّلات بين الناس واستنهضَ عزمَنا لذلك، وأكَّد علينا فيه فقال جل جلاله: (وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً) [الفرقان: ٢٠] وقال تعالى (ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ) [محمد: ٤] وقال سبحانه: (وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللّهِ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ * إِنَّ اللّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ) [النحل: ١٢٧، ١٢٨] وقال عز وجل: (وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَى مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا) [الأنعام: ٣٤] وقال تبارك وتعالى: (وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ أَذًى كَثِيراً وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ) [آل عمران: ١٨٦] وقال سبحانه: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) [آل عمران: ٢٠٠]. وقال صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم: (رحم الله موسى، لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر) رواه البخاري.

وهذه عشرة ضوابط للتعايش في الشريعة المطهرة يمكن من خلالها اتضاحُ مفهوم المعايشة.

ضوابط التعايش

بيَّن أصدقُ الحديث وخيرُ الهدي ضوابطَ التعايش بين الناس، ويرجع أكثرها إلى التزامٍ بالوسطية وبُعدٍ عن الإفراط والتفريط وإدراكٍ للحقيقة ووعيٍ للمقاصد وللواقع وإليك التفصيل:

الأول: عدم الإكراه على الدين:

قال الله سبحانه تعالى: (لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ) ، وقال جل وعلا: (وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ) وفرقٌ كبير بين الإكراه على الدين وبين الدعوة إلى الدين، وبيان محاسنه وجماله وعظمته وكماله وأحقِّيته؛ فالأول ممنوع منهيٌّ عنه، والثاني مفروض مأمور به، وهو من أعظم مهمات المسلمين في حملِهم الخير والرحمة لجميع الناس.

وفرقٌ كذلك بين الإكراه على الدين، وبين ردِّ عدوان من صدَّ عنه ومنعَ تبيينَه وعرضَه بالحجة وبالإقناع والمنطق، وبكل أسلوبٍ حسنٍ ووسائل مشروعة؛ فمثل هذا الصادِّ المانع المنتزع لحرِّيات الآخرين الذي يريد قهرَ غيره على رأيه ومبدئه بسطوته وبطشه هو الظالم المعادي للبشرية المأمور بقتاله عند تعيُّن القتال لردِّ عدوانه وهو المراد بمثل قوله تعالى : (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ فَإِنِ انتَهَواْ فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ). ومِن دين الله أن لا إكراه في الدين.

وفرقٌ كذلك بين الإكراه في الدين وبين حسنِ التربية والتهذيب وفرضِ العقوبات على مَشينٍ من التصرفات وقبيحٍ من الأفعال، فالأول ممنوع والثاني متعيِّنٌ لعلاج النفوس البشرية والأخذ بيدِ أصحابها للتخلص من القبائح والسمو إلى التحلي بحميدِ الأوصاف والخلال.

الثاني: حفظ حرمة الدماء والأموال والأعراض:

وقد عظَّمت شريعةُ الله حرمةَ الدماء والأموال والأعراض غاية التعظيم، وشنَّعت خطرَ الإيذاء والاعتداء بغير حق ولو على الحيوان فكيف بالإنسان، قال تعالى: (مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً) [المائدة: ٣٢]، وأخرج البخاري عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم قال: (من قتلَ معاهَداً لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحَها توجد من مسيرة أربعين عاما). ووضعت الحلَّ للمشكلة عند حدوث تصرُّفٍ أهوج حتى لا يستشري الفساد ولا يفقد صاحبُ الحق توازنَه فيتصرف بما يُحدث القلقَ والاضطرابَ ويهدد أو يزعزع قاعدةَ أمنِ الناس واستقرارهم. قال تعالى: (وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُوراً) [الإسراء: ٣٣]، قوله: **جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ** أي المقتول **سلطانا** أي سلطةً فإن شاء عفا وإن شاء أخذَ الدية وإن شاء اقتَص. **فلا يسرف في القتل:** فلا يقتل غير القاتل ولا يمثِّل به.

فعلى أساس صيانة الأنفس والأموال والأعراض يجب أن تقوم العلاقة بين جميع فئات الناس وطوائفهم. ذكر ابن خلدون أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما فتح مدينة القدس كتب للنصارى أماناً على أنفسهم وأولادهم ونسائهم وأموالهم وجميع كنائسهم: لا تُهدم ولا تُسكن، وإنه جلس في وسط صحن كنيسة القيامة فلما حان وقت الصلاة خرج وصلى خارج الكنيسة على الدرجة التي على بابها بمفرده، ثم جلس وقال للبطرك: لو صليتُ داخل الكنيسة لأخذها المسلمون من بعدي، وقالوا: هنا صلى عمر. وكتب كتاباً يتضمن أنه لا يصلي أحد من المسلمين على الدرجة إلا واحد واحد، ولا يجتمع المسلمون بها للصلاة. ولا يؤذنون عليها، وأنه أشار عليه البطرك باتخاذ موضع الصخرة مسجداً، وكان فوقها تراب كثير، فتناول عمر رضي اللّه عنه من التراب في ثوبه فبادر المسلمون لرفعه حتى لم يبقَ شيء وعُمِّر المسجد الأقصى أمام الصخرة.

الثالث: إقامة العدل والقسط في الحكم بين جميع الطوائف:

فلا تحمل العاطفة ولا الشنئان أي البغض على إجحافٍ في حكمٍ ولا إحقاقِ باطل ولا إبطالِ حق. قال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً) [سورة النساء: ٥٨]، وقال جل وعلا: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ). [سورة المائدة: ٨]، وقال تبارك وتعالى: (فَإِن جَآؤُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ). [المائدة: ٤٢]، وقال: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً) [النساء: ١٣٥].

جاء في كنز العمال عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رجلاً من أهل مصر أتى عمر بن الخطاب فقال: يا أمير المؤمنين! عائذٌ بك من الظلم، قال: عذت معاذا، قال: سابقت ابنَ عمرو بن العاص فسبقتُه، فجعل يضربني بالسوط ويقول: أنا ابن الأكرمين، فكتب عمر إلى عمرو يأمره بالقدوم ويقدم بابنه معه، فقدم، فقال عمر: أين المصري؟ خذ السوط فاضرب، فجعل يضربه بالسوط ويقول عمر: اضرب ابن الأكرمين. قال أنس: فضرب، فوالله لقد ضربه ونحن نحب ضربه، فما أقلع عنه حتى تمنينا أنه يرفع عنه، ثم قال عمر للمصري: ضع السوط على صلعة عمرو، فقال: يا أمير المؤمنين! إنما ابنه الذي ضربني وقد استقدت منه، فقال عمر لعمرو: مذ كم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا؟ قال: يا أمير المؤمنين! لم أعلم ولم يأتِني. رواه ابن عبد الحكم.

وجاء في كنز الرجال من رواية أبي نعيم في الحلية عن يزيد التيمي أن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ورضي عنه سقطت له درع فأخذها يهودي، فقاضاه إلى شريح، فقال شريح: ما تطلب يا أمير المؤمنين؟ قال درعي سقطت عن جمل لي أورق فالتقطَها هذا اليهودي، فقال شريح: ما تقول يا يهودي؟ قال: درعي وفي يدي، فقال شريح: صدقتَ والله يا أمير المؤمنين إنها لدرعُك ولكن لا بد من شاهدين، فدعا قنبرا مولاه والحسن بن علي، فشهِدا أنها لدرعه، فقال شريح: أما شهادة مولاك فقد أجزناها، وأما شهادة ابنك لك فلا نجيزها، فقال علي: ثكلتكَ أمك أما سمعتَ عمر يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة؟ قال: اللهم نعم، قال: أفلا تجيز شهادةَ سيدي شباب أهل الجنة؟ ثم قال لليهودي: خذ الدرع، فقال اليهودي: أمير المؤمنين جاء معي إلى قاضي المسلمين فقضى على علي ورضي! صدقتَ والله يا أمير المؤمنين إنها لدرعك سقطَت عن جملٍ لك، التقطتها، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله؛ فوهبها له علي وأجازه بسبع مائة ولم يزل معه حتى قتل يوم صفين.

ومن الواضح البيِّن المتواتر عيشُ طوائف كثيرة من غير المسلمين في أحضان الحكم الإسلامي على مدى القرون في ضمانٍ لحقوقهم وأمنٍ على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم في عدد من الأقطار.

<u>الرابع: التفريق بين المودة والولاء، وبين البر والقسط وإحسان المعاملة:</u>

فالمودة والولاء ممنوعان على المؤمن بالله ورسوله في حق مَن لم يؤمن بالله ورسوله كائناً من كان، لكن البر والقسط وإحسان المعاملة مشروعاتٌ موروثاتٌ من هديِ رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، وفي سورة الممتحنة تفصيلٌ بديعٌ لذلك، ففيها النهي عن الولاء والمودة لأعداء الله ورسوله، مع بيان نقاط الانطلاق السامي، فلا عصبية ولا دواعي نفسية ولا شهوات ولا أغراض دنيوية في قوله ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي﴾ [الممتحنة: ١]، وقوله: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ [الممتحنة: ٢]، وفيها ذكر احتمال تحوُّل الأحوال وعودُ الكافر مؤمناً وعودُ المعادي أخاً مناصراً، فالمسألة مبدأ لا حقد ولا هوى في قوله: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الممتحنة: ٧]، وتضمَّنت استمالةً إلى تقويم الشعور والأحاسيس على الاعتدال والوسطية بذكرِ القدرة الإلهية حتى لا يُستبَعد تحويلُ حالٍ معاند أو طاغ. وذكر وصفَ المغفرة والرحمة حتى لا تُستبعد مغفرته ورحمته لمن شاء مهما صدر منهم من إساءة. وفيها تشجيعُ البرِّ والقسط والترغيب فيه، في قوله ﴿لَا

يَنهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) . آية ٨، وفيها حصر النهي عن الولاء في صنف مخصوص جنَّدوا قواهم للعدوان والظلم والصد عن سبيل الله في قوله: (إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) آية ٩.

ومن خلال هذه الآيات المتقدمة وما جاء في موضوعها مقرونة بالهدي النبوي يُعلم معنى وموضع الغلظة والشدة المأمور بهما المتعيِّنَين وسيلةً لردعِ المعتدي وردِّ عدوانه، وللحفاظ على المبادئ والقيم التي لا تقبل المساومة .

فمع ربط الآيات الكريمة ببعضها وربطها بهدي القدوة في تنفيذها وتطبيقها والعمل بها، يتبين جليًّا أن المراد بمثل آية (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) [التوبة: ٧٣]، وآية (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ قَاتِلُواْ الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ) [التوبة: ١٢٣]، وآية: (مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ) [الفتح:٢٩]، صنفٌ مخصوص من الذين جنَّدوا طاقاتهم وقواهم للظلم والاعتداء على الغير ومصادرة الحريات ونشر الفساد والجريمة وإثارة الشغب والصد عن سبيل الله، من الذين بيَّن القرآن وصفهم في مثل قوله تعالى: (اشْتَرَوْاْ بِآيَاتِ اللّهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاء مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ * لاَ يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ * فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَإِن نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُواْ أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ * أَلاَ تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَؤُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤُمِنِينَ) [التوبة: ٩- ١٣] وقوله: (مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلاَ الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) [البقرة:١٠٥]، وقوله : (وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ) [البقرة: ١٠٩]، وقوله (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوَاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقاً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ) [آل عمران: ١٠٠]، وقوله: (إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ) [آل عمران: ١٢٠]، ويبين ذلك قولُه تعالى: (وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَاء فَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَاء حَتَّىَ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتَّمُوهُمْ وَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً * إِلاَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىَ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَآؤُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُواْ قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً * سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوَاْ إِلَى الْفِتْنِةِ أُرْكِسُواْ فِيِهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُواْ إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّواْ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثِقِفْتُمُوهُمْ وَأُوْلَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً مُّبِيناً) [النساء: ٨٩-٩١]، وقوله: (وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ) [البقرة: ٢٠٤]، وقوله تعالى: (وَالَّذِينَ اتَّخَذُواْ مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَاداً لِّمَنْ حَارَبَ اللّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفَنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى وَاللّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) [التوبة: ١٠٧].

فلأي مصلحةٍ للبشر يفسح المجال للتكتلات العدوانية والإفسادية والأطماع الغاشمة في الاستيلاء وأخذ حقِّ الغير القائمة بنشرِ الفساد الخلقي والاجتماعي وزعزعة الأمن والاستقرار وإثارة البغضاء والشحناء والحقد بين طوائف البشر وبني آدم تحت أي مسمى وشعار كائناً ما كان.

فمعنى الغلظة والشدة المأمور بهما عدم التساهل في فتحِ الثغرات لأهل العدوان والإفساد، وموضعهما مواجهتِه أهل العدوان بما يردعُهم ويرد عدوانَهم، ومواجهة المفسدين برفضِ فسادهم وعدم تمكينِهم من نشره في الأخلاق والمبادئ والمجتمعات؛ وليس من الغلظة والشدة المشروعين تركُ دعوتهم أو التقصير فيها وإن كانوا معتدين ومفسدين، بل هي الأصل، وجاءتنا الشريعة بالحث عليها والترغيب فيها، وقد روى البخاري ومسلم عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم يوم خيبر: لأعطينَّ الرايةَ غدًا رجلاً يفتح على يديه، يحب اللهَ ورسولَه ويحبه الله ورسوله؛ فبات الناس ليلتهم أيهم يُعطي، فغدوا كلهم يرجونه، فقال: أين علي؟ فقيل: يشتكي عينيه، فبصق في عينيه ودعا له فبرأ كأن لم يكن به وجع، فأعطاه، فقال: أقاتلُهم حتى يكونوا مثلنا؟ فقال أنفذ على رِسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً خيرٌ لك من أن يكون لك حمرُ النعم.

وروى الإمام أحمد وأبو داود والبيهقي عن أنس رضي الله عنه: أن غلاماً من اليهود كان يخدمُ النبي صلى الله عليه وسلم، فمرض فأتاه النبي صلى الله عليه وسلم يعوده وهو بالموت، فدعاه إلى الإسلام، فنظر الغلام إلى أبيه وهو عند رأسه، فقال له أبوه: أطع أبا القاسم، فأسلم ثم مات، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من عنده وهو يقول: الحمد لله الذي أنقذه بي من النار. وفيه من التعايش قبولُ خدمةِ أبناء الذميين، وعيادة مرضاهم وتمنِّي الخير لهم، والفرح لهم به.

وليس من الغلظة والشدة المشروعين قتلُ الأطفال أو النساء والتمثيل بالقتلى والإساءة إلى الأسرى، بل كل ذلك منهيٌّ عنه محرم في الشريعة الغراء. وقد روى البيهقي في سننه عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: انطلقوا باسم الله وبالله وعلى ملة رسول الله، لا تقتلوا شيخاً فانياً ولا طفلاً ولا صغيراً ولا امرأةً، ولا تغلوا وضموا غنائمكم وأصلحوا وأحسنوا إن الله يحب المحسنين.

وروى الإمام أحمد والبيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا بعث جيشا قال: أخرجوا باسم الله، تقاتلون في سبيل اللهِ مَن كفر بالله، لا تغدروا ولا تمثِّلوا ولا تغلوا، ولا تقتلوا الولدان ولا أصحاب الصوامع.

عن أبي عمران الجوني أن أبا بكر رضي الله عنه بعث يزيدَ بن أبي سفيان إلى الشام فمشى معه يشيِّعه، قال يزيد بن أبي سفيان: إني أكره أن تكون ماشيا وأنا راكب، قال: فقال إنك خرجتَ غازياً في سبيل الله، وإني احتسب في مشيي هذا معك، ثم أوصاه فقال: لا تقتلوا صبيًّا ولا امرأة ولا شيخاً كبيرا ولا مريضا ولا راهبا ولا تقطعوا مثمرا ولا تخربوا عامرا ولا تذبحوا بعيرا ولا بقرة إلا لمأكل، ولا تغرقوا نخلا ولا تحرقوه. رواه البيهقي .

فهذه جملة من الآداب في الهدي النبوي تتعلق بالمعتدي المفسد، فكيف بغيره! وروى البخاري عن أنس عن أبي طلحة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر يوم بدر بأربعةٍ وعشرين رجلا من

صناديد قريش، فقذفوا في طوي من أطواء بدر خبيث مخبث، وكان إذا ظهر على قوم أقام بالعرصة ثلاث ليال، فلما كان ببدر اليوم الثالث أمر براحلته فشدَّ عليها رحلها ثم مشى واتبعه أصحابه وقالوا، ما نرى ينطلق إلا لبعض حاجته حتى قام على شفة الركي فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم: يا فلان بن فلان ويا فلان بن فلان أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا؟ قال: فقال عمر يا رسول الله ما تكلم من أجسادٍ لا أرواح لها! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: والذي نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم. قال قتادة: أحياهم الله حتى أسمعهم قولَه توبيخاً وتصغيراً ونقمةً وحسرةً وندما.

وذكر ابن إسحاق عن نُبَيه بن وهب قال فَرَّقَ رسول الله صلى الله عليه وسلم الأسرى على أصحابه وقال استوصوا بالأسرى خيراً فكان أبو عزيز بن عمير عند رجل من الأنصار، فقال له أخوه مصعب شُدَّ يدك به فإن أخته ذاتُ متاع، فقال أبو عزيز يا أخي هذه وصيتك بي؟ فقال مصعب إنه أخي دونك، قال عزيز: وكنت مع رهط من الأنصار حين قفلوا فكانوا إذا قدموا طعاماً خصوني بالخبز وأكلوا التمر لوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم إياهم بنا، ما يقع في يد رجل منهم كِسْرة إلا نفحني بها، قال: فأستحي فأردها على أحدهم فيردها عليَّ ما يمسها.

وليس من الغلظة والشدة المشروعين تركُ الدعاء بالهداية للمعتدين المفسدين والمسارعة إلى الدعاء عليهم، ولمَّا كُسِرت رباعيةُ رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، وشُجَّ في جبهته، فجعلت الدماء تسيل على وجهه، قيل يا رسول الله: ادعُ الله عليهم، فقال صلى الله عليه وسلم: إن الله تعالى لم يبعثني طعَّاناً ولا لعاناً، ولكن بعثني داعية ورحمة، اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون. أخرجه البيهقي في شعب الإيمان.

وروى البخاري ومسلم عن عروة بن الزبير رضي الله عنه أن عائشة رضي الله عنها زوج النبي صلى الله عليه وسلم حدثته أنها قالت للنبي صلى الله عليه وسلم: هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ قال لقد لقيتُ من قومك ما لقيت وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضتُ نفسي على بن عبد يا ليل بن عبد كلال فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني فقال: إن الله قد سمع قولَ قومِك لك وما ردوا عليك وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال فسلَّم علي ثم قال يا محمد: إن الله قد سمع قول قومك لك وأنا ملك الجبال وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك فيما شئت، إن شئتُ أن أطبق عليهم الأخشبين، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: بل أرجو أن يخرج اللهُ من أصلابهم من يعبد اللهَ وحده لا يشرك به شيئا.

ومن المشروع لسدِّ ثغرات الإفساد: البعدُ عن الجلوس مع الخائضين في الآيات والمشكِّكين والمستهزئين، مع إباحة الجلوس معهم في غير ذلك. كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨]، وقال: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠].

الخامس: احترام العهود والمواثيق والبعد عن الغدر والخيانة:

قال تعالى: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة:٤] ، **وقال تعالى** : ﴿إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة:٧]. وفي تاريخ مدينة دمشق أن التابعي الجليل عامر بن عبد الله مر برجل من أعوان السلطان وإذا هو قد علق ذميا يدعوه إلى دار الإمارة، قال والذمي يستغيث قال فمال إليه عامر فقال ما لك وله؟ قال أذهب به إلى دار الإمارة يكنسها، فأقبل عامر على الذمي فقال يطيب قلبك بهذا له؟ قال لا، يشغلني عن ضيعتي، فقال له عامر أديت جزيتك؟ قال نعم فأقبل على عون السلطان فقال إني أراه يذكر أنه قد أدى جزيته ولا أراك تتكر ذاك وإنما يذهب بسخرة ولا أراه تطيب نفسه بذاك فدعه، قال لا أدعه قال والله لتدعنه قال والله لا أدعه فقال والله لا تخفر ذمة محمد. وفي رواية : أنه ما قام مع رجل الشرط الذي كان يمسك بخناق ذمي فقد سمع الذمي يستغيث بالناس ويقول أجيروني أجاركم الله أجيروا ذمة نبيكم يا معشر المسلمين.. فاقبل عامر عليه وقال : هل أديت جزيتك ؟ فقال: نعم. فالتفت إلى الرجل الممسك بخناقه وقال ماذا تريد منه؟ فقال أريد أن يذهب معي لينظف حديقة صاحب الشرط. فقال للذمي: أتطيب نفسك بهذا العمل؟ فقال : كلا، فذلك يهد قواي ، ويشغلني عن كسب قوت عيالي، فالتفت عامر إلى الرجل وقال : دعه ، فقال : لا أدعه، فما كان من عامر إلا أن ألقى ردائه على الذمي وقال: والله لا تخفر ذمة محمد وأنا حي، ثم تجمع الناس وأعانوا عامراً على الرجل وخلصوا الذمي بالقوة.

وفي السيرة النبوية لابن هشام لما جاء أبو جندل إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد أن عقد صلح الحديبية مع مشركي مكة فقال له : يا أبا جندل، اصبر واحتسب، فإن اللّه جاعلٌ لك ولمن معك من المسلمين فرجاً ومخرجاً، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً وأعطيناهم على ذلك عهداً وأعطونا عهد اللّه، وإنا لا نغدر بهم.

وفي ظلِّ التزام كلٍّ بعهوده واتفاقاته يستقر الوضع ، وتنشأ الثقة، ويسير سيل تبادل المصالح والمنافع، فيسود الأمن فيتم التعايش السليم القويم.

السادس: التفريق بين من يمكن التعامل معه وبين من يتفاحش عدوانه وإصراره ولا يؤمن شره:

وقد استأجر رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم مع أبي بكر رضي الله في الهجرة مشركاً يدلُّهم على الطريق يؤمَن جانبه، وفي بدر قال النبي لأصحابه يوم التقى الجمعان: قد عرفت رجالاً من بني هاشم وغيرهم أخرجوا إكراها، فمن لقي منكم أحدا من بني هاشم فلا يقتله ومن لقي العباس بن عبد المطلب فلا يقتله ، فانه أخرج كرها.

وقد دخل مع رجوعه من الطائف في جوار المطعم بن عدي، قال ابن كثير في البداية والنهاية: دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة مرجعه من الطائف في جوار المطعم بن عدي، وازداد قومه عليه حنقاً وغيظاً وجرأةً وتكذيباً وعناداً، والله المستعان وعليه التكلان.

وقد ذكر الأموي في (مغازيه): أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث أريقط إلى الأخنس بن شريق، فطلب منه أن يجيره بمكة. فقال: إن حليف قريش لا يجير على صميمها، ثم بعثه إلى سهيل بن عمرو ليجيره فقال: إن بني عامر بن لؤي لا تجير على بني كعب بن لؤي، فبعثه إلى المطعم بن عدي ليجيره فقال: نعم قل لـــه: فليأت. فذهب إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فبات عنده تلك الليلة، فلما أصبح خرج معه هو وبنوه ستة – أو سبعة – متقلدي السيوف جميعاً، فدخلوا المسجد وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: طف، واحتبـــوا بحمائل سيوفهم في المطاف، فأقبل أبو سفيان إلى مطعم فقال: أمجير أو تابع؟ قال: لا، بل مجير. قال: إذاً لا تُخفر، فجلس معه حتى قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم طوافَه، فلما انصرف انصرفوا معه وذهب أبو سفيان إلى مجلسه. قال: فمكث أياماً، ثم أُذن له في الهجرة، فلما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلـــى المدينة توفي مطعم بن عدي بعده بيسير.

ودخل أبوبكر في جوار ابن الدغنة، قالت السيدة عائشة رضي الله عنها: لما ابتلي المسلمون خرج أبو بكـــر مهاجرا قبل الحبشة، حتى إذا بلغ برك الغماد لقيه ابن الدغنة، وهو سيد القارة، فقال: أين تريد يا أبـــا بكـــر؟ فقال أبو بكر: أخرجني قومي، فأنا أريد أن أسيح في الأرض فأعبد ربي. قال ابن الدغنة: إن مثلك لا يَخرج ولا يُخرج، فإنك تكسب المعدوم، وتصل الرحم، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، وأنا لك جار، فارجع فاعبد ربَّك ببلادك، فارتحل ابن الدغنة، فرجع مع أبي بكر، فطاف في أشراف كفار قريش، فقال لهم: إن أبا بكر لا يخرج مثله ولا يُخرج، أتُخرِجون رجلا يكسب المعدوم، ويصل الرحم ويحمل الكـــل، ويقري الضيف، ويعين على نوائب الحق. فأنفذت قريش جوار ابن الدغنة، وآمنوا أبا بكـــر، وقـــالوا لابـــن الدغنة: مر أبا بكر فليعبد ربه في داره، فليُصلِّ وليقرأ ما شاء، ولا يؤذينا بذلك، ولا يستعلن به، فإنا قد خشينا أن يفتن أبناءنا ونساءنا. قال ذلك ابن الدغنة لأبي بكر، فطفق أبو بكر يعبـــد ربـــه فـــي داره، ولا يـــستعلن بالصلاة، ولا القراءة في غير داره، ثم بدا لأبي بكر، فابتنى مسجدا بفناء داره وبرز، فكان يصلي فيه، ويقرأ القرآن، فيتقصف عليه نساء المشركين وأبناؤهم، يعجبون وينظرون إليه، وكان أبو بكر رجلا بكاء، لا يملـــك دمعَه حين يقرأ القرآن، فأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين، فأرسلوا إلى ابن الدغنة فقدم عليهم، فقـــالوا له: إنا كنا أجرنا أبا بكر على أن يعبد ربه في داره، وإنه جاوز ذلك، فابتنى مـــسجدا بفنـــاء داره، وأعلـــن الصلاة والقراءة، وقد خشينا أن يفتن أبناءنا ونساءنا، فأتِه، فإن أحبَّ أن يقتصر على أن يعبد ربه فـــي داره فعل، وإن أبى إلا أن يعلن ذلك، فسَله أن يرد إليك ذمتَك، فإنا كرهنا أن نخفرك، ولسنا مقـــرِّين لأبـــي بكـــر الاستعلان. قالت عائشة: فأتى ابن الدغنة: أبا بكر، فقال: قد علمتَ الذي عقدتُ لك عليه، فإما أن تقتصر على ذلك، وإما أن ترد إلي ذمتي، فإني لا أحب أن تسمع العرب أني أخفرت في رجل عقدتُ له. قال أبـــو بكـــر: إني أرد لك جوارَك، وأرضى جوار الله.

<u>السابع: التفريق بين أخذ علوم الحرف واللغات والهندسة والاجتماعيات والرياضيات والصناعات والماديات بأنواعها وبين ما له تعلق بالإيمان والشريعة والدين:</u>

فالأول يؤخذ من كل متقِن له مطلع فيه من غير تركِ واجب ولا وقوع في محرم، فيمكن تبادلُ المعلومـــات فيه بين مختلف الطوائف.

والثاني لا يؤخذ إلا عن أهله بسنده إلى مصدره ومنبعه، قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري: أخرج أحمد وابن شيبة والبزار من حديث جابر أن عمر رضي الله عنه أتى النبيَّ صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم بكتابٍ أصابه من بعض أهل الكتاب، فقرأه عليه فغضب وقال: لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذِّبوا به أو بباطل فتصدِّقوا به، والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حيا ما وسعه إلا اتباعي.

وروى مسلم في مقدمة صحيحه عن الإمام محمد بن سيرين قال: إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم. وروى عن عبد الله بن المبارك أنه قال: الإسناد من الدين ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء.

الثامن: حفظ المعروف لأهله ومكافأتهم والوفاء لهم:

وقد قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم في أسرى بدر كما في البخاري: لو كان المطعم بن عدي حيًّا ثم كلمني في هؤلاء النتنى لتركتهم له، وذلك أنه كان من أشدِّ من قام في نقض الصحيفة أيام حبسوه وقومه في الشعب، وأجار النبيَّ عند رجوعه من الطائف كما تقدم.

ويؤكد القيام بهذا الواجب في حفظ المعروف :

مبدأ ترك العصبية: يعين عليه مبدأ نبذ العصبية في التفكير والخطاب والتعامل. وقد روى أبو داود عن جبير بن مطعم أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: ليس منَّا من دعا إلى عصبيةٍ، وليس منَّا من قاتل على عصبيةٍ، وليس منَّا من مات على عصبية.

التاسع: ترك الجدال العقيم، وحصره في التي هي أحسن.

ومما يزعزع التعايش السليم التولع بكثرة الجدال وإثارة البلبلة وكثرة المراء والانتقاد، وقد نهَتنا الشريعة عن الجدال إلا مع الالتزام فيه بالتي هي أحسن، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت:٤٦]. وقال سبحانه وتعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل:١٢٥]. وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾[الأنعام:١٢١]، وقال صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم: (ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل) رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه.

قال تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾.[الأعراف:١٩٩] وقال تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان:٦٣]. ومما يندرج في ذلك الإعراض والتغافل عن المتعللين بالأعذار الكاذبة والمظهرين خلاف ما يبطنون من السوء وما يخفونه من القبائح قال تعالى ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [التوبة:١٩٥] وفرقٌ بين الإعراض عنهم وبين الرضا بما تدل عليه القرائن من السوء قال تعالى ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة:١٩٦].

ومما يعين على ترك الجدال تقويم أن المسؤولية في البلاغ وحسن البيان لا السيطرة ولا أن ننصب أنفسنا وكلاء على الناس في بواطنهم ومقاصدهم ولا في تولِّي حسابهم ومجازاتهم على أعمالهم، وقد يبدو شيء من ذلك في أسلوب بعض المتكلمين باسم الدين ويلتبس عليهم أن ذلك من الغيرة على الدين والنصرة للحق، قال الله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ * إِلَّا مَن تَوَلَّى وَكَفَرَ * فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ * إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ

عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ) [الغاشية:٢١-٢٦] **وقال تعالى** (فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ) [الشورى:٤٨]. **وقال تعالى** (قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٢) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ) [الشعراء:١١٣] **وقال تعالى** (قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ) **وقال** (اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ * وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ) [الأنعام:١٠٦-١٠٧] **وقال تعالى** (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ * وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ) [الأنعام:١١٢-١١٣]

ويتصل بما ذكر ضبطُ النفس عند الاستفزاز من الآخر ومعالجة الموقف بالحكمة والإحسان، وقد أخرج الحاكم في المستدرك وابن حبان وابن عيينة عن عبد الله بن سلام رضي الله تعالى عنه قال: إن الله تبارك وتعالى لما أراد هدايةَ زيد بن سعنة، قال زيد: ما من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفتُها في وجهِ محمد صلَّى الله عليه وسلَّم حين نظرتُ إليه، إلا شيئين لم أخبرهما منه: هل يسبق حلمُه جهلَه، ولا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلما؟ فكنت ألطف به لئن أخالطه، فأعرف حلمَه من جهله. قال زيد بن سعنة: فخرج رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم يوما من الحجرات، ومعه علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه. فأتاه رجل على راحلته كالبدوي، فقال: يا رسول الله، إن بصرى قرية بني فلان قد أسلموا، ودخلوا في الإسلام، وكنت حدثتهم إن أسلموا آتاهم الرزق رغدا، وقد أصابتهم سنة وشدة، وقحوط من الغيث، فأنا أخشى يا رسول الله أن يخرجوا من الإسلام طمعا، كما دخلوا فيه طمعا، فإن رأيت أن ترسل إليهم بشيء تعينهم به فعلت. فنظر إلي رجل، وإلى جانبه أراه عليا –رضي الله تعالى عنه– فقال: يا رسول الله، ما بقي منه شيء؟ قال زيد بن سعنة: فدنوت إليه، فقلت: يا محمد، هل لك أن تبيعني تمرا معلوما من حائط بني فلان إلى أجل كذا وكذا؟ فقال: (لا يا يهودي، ولكن أبيعك تمرا معلوما إلى أجل كذا وكذا، ولا أسمي حائط بني فلان). فقلت: نعم. فبايعني، فأطلقت همياني، فأعطيته ثمانين مثقالا من ذهب، في تمر معلوم، إلى أجل كذا وكذا، فأعطاها الرجل. فقال: (اعدل عليهم، وأعنهم بها). فقال زيد بن سعنة: فلما كان قبل محل الأجل بيومين أو ثلاثة أتيته، فأخذت بمجامع قميصه وردائه، ونظرت إليه بوجه غليظ، فقلت له: ألا تقضيني يا محمد حقي، فوالله ما علمتم يا بني عبد المطلب إلا سيء القضاء مطل، ولقد كان لي بمخالطتكم علم. ونظرت إلى عمر، فإذا عيناه تدوران في وجهه كالفلك المستدير، ثم رماني ببصره، فقال: يا عدو الله، أتقول لرسول الله –صلَّى الله عليه وسلَّم– ما أسمع، وتصنع به ما أرى، فو الذي بعثه بالحق، لولا ما أحاذر قوته لضربت بسيفي رأسك. ورسول الله –صلَّى الله عليه وسلَّم– ينظر إلى عمر في سكون، وتؤدة، وتبسم. ثم قال: (يا عمر، أنا وهو كنا أحوج إلى غير هذا: أن تأمرني بحسن الأداء، وتأمره بحسن التباعة – أي المطالبة–، اذهب به يا عمر، فأعطه حقه، وزده عشرين صاعا من تمر). فقلت: ما هذه الزيادة يا عمر؟ قال: أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أزيدك مكان ما نقمتك. قلت: أتعرفني يا عمر؟ قال: لا، من أنت؟ قلت: زيد بن سعنة. قال: الحبر؟! قلت: الحبر. قال: فما دعاك أن فعلتَ برسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ما فعلت؟ وقلت له ما قلت؟ قلت له: يا عمر، لم يكن له من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفته في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم

حين نظرتُ إليه، إلا اثنين لم أخبرهما منه: يسبق حلمُه جهلَه، ولا تزيده شدةُ الجهل عليه إلا حلما، فقد اختبرتهما، فأشهدك يا عمر أني قد رضيت بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا، وأشهدك أن شطر مالي –فإني أكثرهم مالا– صدقة على أمة محمد صلى الله عليه وسلم، فقال عمر رضي الله عنه: أو على بعضهم، فإنك لا تسعهم، قلت: أو على بعضهم. فرجع زيد إلى رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، فقال زيد: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.وآمن به، وصدَّقه، وبايعه، وشهد معه مشاهد كثيرة. ثم توفي زيد في غزوة تبوك، مُقبلا غير مدبر، ورحم الله زيدا.

العاشر: فتح المجال للباحثين عن الحقيقة وتيسير السبيل لهم

قال تعالى ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة:٦] قال ابن كثير: يقول تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه: **وإن أحد من المشركين** الذين أمرتك بقتالهم وأحللت لك استباحة نفوسهم وأموالهم **استجارك** أي استأمنك فأجِبه إلى طلبته **حتى يسمع كلام الله** أي القرآن تقرؤه عليه وتذكر له شيئا من أمر الدين تقيم به عليه حجة الله **ثم أبلغه مأمنه** أي وهو آمن مستمر الأمان حتى يرجع إلى بلاده وداره. ومأمنه **(ذلك بأنهم قوم لا يعلمون)** أي إنما شرعنا أمان مثل هؤلاء ليعلموا دين الله وتنتشر دعوة الله في عباده ،وقال ابن نجيح عن مجاهد في تفسير هذه الآية قال إنسان يأتيك ليسمع ما تقول وما أنزل عليك فهو آمن حتى يأتيك فتسمعه كلام الله وحتى يبلغ مأمنه حيث جاء،ومن هذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطي الأمان لمن جاءه مسترشدا أوفي رسالة ،كما جاء يوم الحديبية جماعة من الرسل من قريش منهم عروة بن مسعود ومكرز بن حفص وسهيل بن عمرو وغيرهم واحدا بعد واحد يترددون في القضية بينه وبين المشركين فرأوا من إعظام المسلمين رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بهرهم وما لم يشاهدوه عند ملك ولا قيصر فرجعوا إلى قومهم واخبروهم بذلك ،وكان ذلك وأمثاله من أكبر أسباب هداية أكثرهم ،ولهذا أيضا لما قدم رسول مسيلمة الكذاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له أتشهد أن مسيلمة رسول الله ؟قال نعم ،فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ((لولا أن الرسل لاتقتل لضربت عنقك))وقد قيض الله له ضرب العنق في إمارة ابن مسعود على الكوفة،وكان يقال له ابن النواحةظهر عنه في زمان ابن مسعود أنه يشهد لمسيلمة بالرسالة فأرسل إليه ابن مسعود فقال له إنك الآن لست في رسالة وأمربه فضربت عنقه لا رحمة الله ولعنه.والغرض أن من قدم من دار الحرب إلى دار الإسلام في أداء رسالة أو تجارة أو طلب صلح أو مهادنة أو حمل جزية أو نحو ذلك من الأسباب وطلب من الإمام أو نائبه أمانا أعطى أمانا مادام مترددا في دار الإسلام ،وحتى يرجع إلى مأمنه ووطنه.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم والحمد لله رب العالمين.

This document was created with Win2PDF available at http://www.daneprairie.com.
The unregistered version of Win2PDF is for evaluation or non-commercial use only.